بين الفكر والتجربة

-١-

ماهو الفرق بين القراءة عن "الشيء" وبين اختياره؟! وما الذي تحدده طبيعة الإجابة من حقائق ما نسميه "وعينا الإنساني"؟!

القراءة عن "الشيء" –أو الواقعة، أو أية صيغة من صيغ وجود الكائنات والموجودات، وصيغ حركتها وعلاقاتها –تعطي القارئ "فكرة" عما يقرأ. والاستماع إلى وصف "شيء" هو – كالقراءة– واسطة مشابهة للقراءة كي تكون المحصلة: "فكرة".

والفكرة، هكذا، تحلّ محلّ "الشيء" في واقعه وتصير "صورته الذهنية" التي قد لا تتفق إلا في أقل القليل مع طبيعة "الشيء" الحقيقية، بينما هي تدعي –ذهنياً فكلامياً– أنها: هو!

والفكرة تميل إلى الثبات إجمالاً، بينما "الشيء" متحرك وداخل دائماً في شبكة متجددة، متغيرة باستمرار، من علاقات واقعه الحركي المتغير.

ويقودنا هذا –ببساطة– إلى أن "الفكرة" المتكونة هكذا هي، أساساً، "زائفة". ويتزايد زيفها بقدر ابتعادنا عن التحولات والتغيرات في طبيعة وجود "الشيء" في واقعه، وبتزايد ادعائها –خلال ذلك– أنها تمثله أو أنها "هي هو" في وضعها الذهني الساكن.

والفكرة جزء من مجموع فكري –أو من منظومة فكرية إدراكية– تعوّدنا أن نسميه "الوعي"، حيث يجري تعظيمه باعتباره الوسيلة التي تعيننا على "معرفة الواقع" وعلى "التحرك المثمر" فيه.

ولكن، واعتماداً على ما سبق ذكره، ألا يبدو هذا النوع الذهني من "الوعي" –وهو غالب في طرائق المعرفة البشرية – زائفاً إلى درجة خطيرة؟!

-٢-

اختبار "الشيء" يعني تجربة الحضور داخل حركة واقعٍ ما، دون وجود ذلك التقييد الذي تقيمه مسبقاً أفكارٌ جاهزةٌ وذهنيةٌ لها ما ذكرناه من "الزيف"، حيث التقييد المذكور بوساطة تلك الأفكار المسبقة يقسر الإدراك المتحصل "بتجربة الحضور" مع "الشيء/ الواقع"، أو في حركته، على مطابقة تعسفية تحيل الواقع إلى الإدراك.. وليس العكس كما يفترض أن يكون. وعليه، تكون تلك (الفكرانية) عقبة كبرى! اختبار "الشيء" إذاً، أو "تجربة الحضور" في حركة واقع ما، أمرٌ لا يتم بصحة دون التجرد من التصورات "الفكرانية" –ونعني بهذه الكلمة: منظومة الأفكار الزائفة ووسائل عملها الذهنية– ودون الدخول في التجربة بمحبة خالصة للوجود كما هو، أي دونما عاطفية خاصة، كيما يتم تقبل النتائج بموضوعية، حيث "الإنسان في التجربة" إذا كان يريد "أنسنة" الواقع من خلال معرفته له فهو –في الوقت ذاته– يمارس "تطبيع" وجوده، أي إعادة دمج هذا الوجود بالطبيعة عبر احترامه لها ولمفرداتها، وعبر استنارته بها في طلبه للسعادة، باعتباره جزءاً منها أو كائناً فيها.

المعرفة بالتجربة إذاً هي شيء مختلف جذرياً عن المعرفة "المفكرنة"، وهي توصل في أقصى مدى لها إلى إيقاظ قوى الإنسان الداخلية لتحقق له الحرية الحقيقية بما هو جزء صميمي من كينونة العالم الكلية.. وهنا ينتفي الشر والوحشية والجشع والخوف واستبدال ماهو إنساني بالنزوع إلى المزيد من تملك الأشياء، مثلما ينتفي تورم الأنا إذ تزول العقد –على أساس هذا النمط من المعرفة– ويصير الإنسان "ذاته" دون مصادرات.

-٣-

ربما لو تأملنا في قضية النقد –مثلاً– والتي يمارسها أكاديميون "تلقنوا" معارفهم ذهنياً، أي دون خوض للتجربة الإبداعية، لرأينا إلى أي مدى قد تكون تلك المناهج التي ننقلها، مسلّمين كلياً بصحتها، زائفة وغير صحيحة.. مثلها مثل كثير مما ندعي امتلاكه من معارف عن المجتمع والطبيعة والهوية والخصوصية، وما إلى ذلك.

لكن المشكلات الأكبر ليست هنا، بل هي –حقيقة– في "الوضع الإنساني" الراهن الذي يظن أنه يقوم على (العلم)، والعلم كامل ومبرأ من النقص والعيب.. بينما كل شيء في هذا "الوضع الإنساني" صار يحتاج إلى إنقاذ عاجل، أو إدخال إلى "العناية المشددة".

-٤-

كل بيئة حضارية أنتجت، خلال التاريخ، طرائقها التي اعتقد بشرها أنها ملائمة لهم –بحكم خصوصية تجربتهم في ذلك التاريخ– من أجل: (تبصر المرء بطبيعته، وتحقيق الحرية، والسعادة، والحب.. إلى آخره). واختلفت الطرائق، كل واحدة

عن الأخرى، لأسباب قد لا يمكن حصرها، فأعطت اختلافات جذرية بين كيفيات معرفة البشر لأنفسهم، وللآخرين، ولما يريدون، بقدر ما أعطت من (العُقَد) والميول المرضية السيكولوجية: ظاهرة أو مستترة، سطحية أو عميقة.

وفيما يسعى الأفراد للتكيف مع تطورات تفرضها –أو فرضتها طيلة التاريخ– فئات من القوى القامعة، فإنهم بذلك يخسرون حريتهم، ويخسرون مقدرتهم على أن يكونوا "أنفسهم".

البيئة الحضارية الغربية كانت لها خصوصية تطورها أيضاً. وهي اليوم سائدة: بقوة علمٍ تحكمه آليات روح عدوانية، جشعة، ابتزازية، ومنحرفة منذ مالت إلى استبدال "القيمة الإنسانية للإنسان" بقيمة ملكية الأشياء، فعزلت الكائن وسببت له من العقد النفسية مالا يحصى. يقول إيريك فروم في كتاب له عن (التحليل النفسي وبوذية زنّ): (في حين يُعنى الطب النفسي بالسؤال عن سبب جنون بعض البشر، فإن السؤال الفعلي هو عن سبب عدم جنون معظم البشر. ذلك أننا حين ننظر إلى موقع الإنسان في العالم، وانفصاله، ووحدته، وعجزه، وإدراكه لكل ذلك، نتوقع ألا يكون قادراً على تحمل كل هذا العبء، وأن يتمزق –بالمعنى الحرفي للكلمة– تحت وطأة هذا التوتر. إلا أن معظم الناس يتفادون هذه النتيجة عن طريق آليات تعويضية كتغيير روتين حياتهم، والانسجام مع القطيع، والبحث عن السلطة، والهيبة، والمال، والتعويل على "أوثان" يتقاسمها مع آخرين في العبادات، وحياة التضحية المازوخية بالنفس، والتضخم النرجسي، والعجز والعطالة ويمكن القول: إن هذه الآليات التعويضية جميعاً يمكن أن تقي من الجنون، شرط أن تعمل عملها إلى حد ما. أما الحل الجوهري الوحيد الذي يتغلب فعلاً على الجنون المحتمل فهو

الاستجابة للعالم استجابة منتجة كاملة).

وكلمة "منتجة" هنا لا تعني "الإنتاج الاقتصادي" بل تعني تجربة العالم بحبّ كما هو، وقبول معطياته كما هي خارج الجنون المشار إليه وأسبابه.

وإذا عدنا إلى ما بدأنا به عن "معرفة العالم بالتلقين" دون معرفته بالتجربة، كما وصفنا كلاً منهما قبلاً، ثم وازنا بين "منظومات الأفكار الذهنية" ومآلات أوضاعنا وطرائق نظر "مفكرينا" إلى الغرب المعطوب، والذي يعطب معه العالم برمته.. فهل نكون قد بدأنا خطوة صحيحة في اتجاه فهم صحيح لحقيقة، ومعنى وجود الإنسان في العالم؟!

وهل يمكن إكمال الخطوات الصحيحة إلا بمقاومة شرور العطب بالطريقة الملائمة لإعادة وجود الموجودات والكائنات إلى نصابه السليم؟!

السؤال مطروح بقوة مهما حاولنا التعمية علميه. فمتى تنهض البشرية للإجابة بقوة موازية؟!

❑❑